أدبيات الحرب في النقد العربي القديم

م. علاء مهدي عبد الجواد النفاخ

كلية العلوم، جامعة الكوفة، جمهورية العراق

alaa.mahdi141971@gmail.com

الخلاصة

يسعى هذا البحث للعودة إلى التراث النقدي ودراسته من جديد؛ للبحث عن أدبيات الحرب فيه، ومدى ارتباطها بحياة العرب، التي جاءت في بطون كتب النقد، وذلك عن طريق دراسة هذه الأدبيات في محاورها الأربعة: اقتران لفظتي الوقائع والأشعار، وأثر الكلمة في الحرب، وأثر البيئة والمكان في الحرب، فضلا عن الكشف عن الموقف التصويري.

الكلمات المفتاحية : الحرب ، النقد ، الكلمة ، البيئة .

War Literature in Classic Arab Criticism

Lecturer. Alaa Mahdi Abdul-Jawad AL-Naffakh

College of Science, University of Kufa, The Republic of Iraq

alaa.mahdi141971@gmail.com

Abstract

The current study attempts to revisit the critical heritage and study it again. To investigate war literature in it, and how it is connected to Arab life deep through the books of criticism. This is conducted by studying this literature in its four parts: the association of the two words of *facts* and *poems*, the effect of word on war, the impact of the environment and place on war, as well as revealing the pictorial position.

Keywords: War, criticism, word, environment.

مقدمة :

ليس من الصعب على الراصد لمسار الحركة النقدية القديمة أن يدرك ماهيته من ناحية، ومدى التصاقه بالمنتج الإبداعي الشعري من ناحية أخرى، الذي التصق بدوره بالحياة العربية في شتى مجالاتها وبوجه خاص بالتجربة الحياتية المعيشة القائمة على العصبية القبلية قبل الإسلام، التي شكلت علاقات القبائل وتحكمت فيها، فإذا الصلات القبلية تنبني على العداء والحروب المتوالية في كثير من الأحيان، وعلى التحالف والتناصر في قليل من الأحيان[i]. وإن انصهرت هذه القبائل – فيما بعد– في بوتقة سياسية واحدة في ظل الإسلام، وإن بقيت تلك التجاذبات متربصة ومتحفزة للظهور على السطح كما حدث في زمن الأمويين، حين أذكى بنو أمية العصبية بين القيسية واليمنية[ii].

ومن ثمَّ، فإن المتتبع للحياة العربية يستنتج هذه الحيوية التي طبعت المجتمع العربي القديم، وأدت إلى الارتباط بين العربي وقبيلته ، والاستعداد الدائم للدفاع عنها بوصفها شريعة اجتماعية، الأمر الذي أسفر عنه كثير من الحروب أو ما يسميه

المؤرخون أيام العرب سواء أكان في الجاهلية كيوم بُعات؛ وداحس والغبراء، ويوم ذي قار وغيرها، أم في الإسلام كيوم بدر، ويوم أحد، ويوم حنين وغيرها[iii]. وقد سُميت هذه الأيام والحروب بأسماء الأماكن التي وقعت فيها أو أبرز أحداثها أو بالقبائل التي اشتركت فيها أو غير ذلك.

وتعدُّ هذه الأيام والحروب مرآة تتبدى فيها أحوال العرب وعاداتهم ونمط حياتهم، وشغلت حيزاً كبيراً منها، ومن هنا "كانت هذه الأيام أكبر ميدان تتسابق فيه العقول والملكات الشعرية"[iv] ، بوصفها جزءاً من مآثرهم ومفاخرهم التي يحرصون على المجاهرة بها. وقد تكلمت كتب التراث عن مجموعة كبيرة من الحروب التي سجلها الشعر العربي عُرفت باسم (أيام العرب)، وهي كثيرة في كتب الأدب والتاريخ لدرجة يصعب حصرها.

وهنا تبرز مقولة ابن سلام الجمحي (ت:٢٣١هـ) : "وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى محكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون"[v] . حتى إن أربع من المعلقات تضمنت موضوع الحرب مباشرة وهي معلقات: عنترة بن شداد، وزهير بن أبي سُلمى، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، التي كشفت – فضلا عن الأشعار الأخرى– في مجملها ما كان عليه العرب في جاهليتهم من تجاهل للآخر والتهوين من شأنه، والاعتداء المستمر عليه كلما سنحت الفرصة؛ بسبب المبالغة في فهم معنى الحرية الشخصية، التي أدت إلى الإخلال بميزان الحرية الاجتماعية التي ينبغي أن ينعم بها الآخرون، وإلى الاستهتار بالضعيف، أو هكذا أعلن الشعراء الجاهليون لنا في قصادهم، على نحو قول عمرو بن كلثوم:

لَنَا الدُّنيا ومَنْ أَمْسَى عَلَيْها ... ونَبطِشُ حِينَ نَبطِشُ قَادِرِينَا
بُغَاةً ظَالَمينَ وَمَا ظُلِمْنَا ... ولكِنَّا سنبدأُ ظَالمينا[vi]

أو على نحو ما أشار الشاعر الجاهلي (دريد بن الصَّمة)، إلى ما كان عليه العرب في جاهليتهم من نزاعات وحروب، وذلك في قوله:

يُغارُ علينَا واترين فَيُشْتَفى ... بِنا إنْ أُصِبْنَا أَوْ نُغيرُ على وِتْرِ
بِذاكَ قَسَمنَا الدَّهَر شَطرِين قِسْمَة ... فَمَا يَنْقضِي إلاَّ ونحنُ على شَطرِ[vii]

وقد قدم النقد العربي القديم مجموعة من النصوص النقدية التي تلقفت موضوع الحرب والوقائع أو ما يعرف بأدبيات الحرب، التي يمكن مقاربتها على وفق الفقرات الاتية:

أولاً : اقتران لفظتي الوقائع والأشعار.

ثانياً : أثر الكلمة.

ثالثاً : أثر البيئة.

رابعاً : الموقف التصويري.

أولاً : اقتران لفظتي الوقائع والأشعار

لا بد من الإشارة هنا إلى أن اقتران لفظتي الشعر والوقائع لم يكن وقفاً على العرب وحدهم، فقد وصلت إلينا إشارات من حياة الأمم القديمة تشير إلى حضور هذه الظاهرة عندهم، إذ وصلت بعض النصوص السومرية التي تدل على هذا الاقتران وتلك العلاقة، عن طريق مناجاة آلهة الحرب، ومن هذه النصوص:

أيها الإله ذو الساعد القوي

القادرُ على إشهار السلاح القاتل

السلاح الذي يحصدُ كالسنابل رؤوس المتمردين

إلهُ كالأسدِ قوة وكالثعبانِ يلدغُ بلسانه وكالإعصارِ المتفجر[viii]

والأمر نفسه نجده عند الكنعانيين، فعندهم آلهة الحرب محبة للمعارك، وهناك نص يصور (عناة)، في وجهها الأسود وقوتها الأنثوية المدمرة:

إنَّها تُقاتلُ بضراوة

إنَّها تعاركُ المدينتين

تقاتلُ (وتقفُ)، فتجيلُ النظر.

تذبحُ (وتقفُ)، فتتأمل.

كبدُها يتفجر سروراً، وقلبُها يمتلئُ حُبورا في يدها رايةُ الانتصار

تخوضُ في دماء الأبطالِ حتَّى الرُّكب

وتغوصُ في دماءِ الناسِ حتَّى العُنق.[ix]

ومن ثمَّ شغلت الحروب الإنسان منذ قديم الأزل بشكل كبير، فكانت محور حياته، وكان من الطبيعي أن يكون للحرب حيزٌ كبيرٌ ومكانٌ رحبٌ في مساحة الشعر، لجأ الشعراء فيه للتعبير عن الحرب في أشعارهم بوصفهم رجال إعلام مسؤولين في ذلك العصر.

اما في التراث العربي فهناك حقيقة تصادف كلُّ باحث، ألا وهي أن وجود الشعر شكل انشغالاً عملياً أثار فضول الباحثين؛ لارتباطه بأحد الأنشطة الحياتية للعرب المتمثلة في الحروب، أو ما يعرف بالأيام والوقائع التي كانت تدور بين العرب أنفسهم، أو بين قبائل العرب وغيرهم من الأمم كالفرس على نحو ما كان في يوم (ذي قار)[x] ، ثمَّ اتسع مدلول الكلمة (أيام العرب)، لتشمل الفتوح والمغازي في العصر الإسلامي، فصار كتّاب السِّير يقولون: يوم القادسية، ويوم اليرموك ... إلخ، قياساً على أيام العرب في الجاهلية، أو في شكل نقائض[xi] . بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين، تجلت – على سبيل المثال – بين حسان بن ثابت وابن الزبعرى وضرار بن الخطاب.

ونعني بأيام العرب تلك النصوص التي تروي تلك الحروب، التي أخذت مشافهة من الرواة قديماً، وسُميت بذلك؛ لأنهم كانوا يتحاربون نهاراً، فإذا جنهم الليل أوقفوا القتال حتى يبزغ الصباح[xii].

وقد دُونت هذه الأيام والوقائع وجُمعت في موسوعات عدّة وكتب كالأغاني لابي فرج الاصفهاني (ت:٣٥٦هـ)، والعقد الفريد لابن عبد ربه الاندلسي (ت:٣٢٨هـ) وغيرهما. وهذه الوقائع كثيرة جداً للدرجة التي يُصعب فيها حصرها، ومما يدل على كثرتها أن (ابن الأثير الجزري ت: ٦٣٠هـ)، خصَّص لها ما يقارب (١٥٠) صفحة في كتابه الكامل في التاريخ، اكتفى فيها بذكر أشهرها؛ لأنها تخرج عن الحصر والحد[xiii] .

ولا شك في أن الشعر العربي – في معظمه– هو شعر حروب ووقائع وأيام؛ لمواكبة ما كان بين القبائل العربية من جهة أو ما كان بينهم – بعد الإسلام– وبين الفرس والروم من جهة ثانية، بما يكشف عن اقتران لفظتي الشعر والوقائع وارتباطهما؛ نظراً للأحداث الجسام التي شهدها تاريخ العرب، ولا سيما بعد استقلال عرب الحجاز ونجد من سيطرة اليمن، الذي كان بمثابة "انقلاب سياسي، هاج شاعريتهم، وأيقظ ما فطروا عليه من عزة النفس وإباء الضيم ... فلما أُطلق سراحهم تنازعوا، فجرت بينهم حروب تعرف بأيام العرب"[xiv].

وكان الإنسان العربي أحد ضحايا هذه الوقائع، مما جعل الموت والهلاك تجربة شعرية تقاسماهما الشعراء بدرجات متفاوتة، وإن تضخمت عند طائفة من الشعراء، فطغت على شعرهم إلى الحد الذي خصهم فيها (ابن سلام) بطبقة أفردها لهم وسماها (اصحاب المراثي)، منهم : متمم بن نويرة، والخنساء، وأعشى باهلة وغيرهم[xv] ؛ لارتباط هذه المراثي وحرارتها بالوقائع والحروب؛ ذلك أن الحروب كانت إحدى وسائل العيش، ومن ثمَّ فإن الموت هو ضريبة الحياة لاستمرار الكيان العربي وهو الأمور الجمعية، ولكن الموت حين يقع يتحول من فعل جماعي إلى فعل ذاتي على يد الشعراء، حتى وإن ركز هؤلاء على حجم الفقد والخسارة لهذا الفارس أو ذاك، الذي يصبح موضوعاً شعرياً لدى الشاعر[xvi] .

ولعل الغرض من هذا الرثاء هو استنفار العشيرة للحرب؛ لعظم المرثي؛ لأن الفقد هنا يتصل بالجماعة التي ينتمي إليها الشاعر ويؤثر فيها، ومن ثمَّ يطغي الإحساس بالحزن على وجدان الشاعر الفردي والجماعي.

ولعل ما يدعم هذا القول ما يجده الباحث في شعر الخنساء، التي جسدت بحق الموقف القبلي والجماعي إزاء موت أخيها، وما يحتمه ذلك من ضرورة الأخذ بالثأر بوصفه آليةً اجتماعية أبعد ما تكون عن ردَّ الفعل العاطفي.

وقد رأى النقاد القدماء أن الخنساء قد عقدت صلة وجدانية بين أخيها والأشياء التي رحل عنها، فليس كل من حوله حزن لفقده، وإنما هناك من الأشياء ما تسر بموته كفرسه الذي أجهده في الحرب والقتال، وفي هذا إثبات لشجاعته وأثره في قومه "حيث قالت تذكر اغتباط حذفة فرس صخر بموته:

فَقَدْ فَقَدتْكَ حذفةٌ فَاسْتَرَاحْت ... فليتَ الخيلَ فارسُها يَرَاها

ولو قالت: فقدتك حذفة فبكت ،لأخطأت، بل إنما يجب أن يبكي على الميت "[xvii]

أما عن تاريخ اقتران الشعر بالوقائع والحروب، فيرى (ابن سلام الجمحي)، أن "أول من قصد القصائد وذكر الوقائع، المهلهل بن ربيعة التغلبي في رثاء أخيه كليب". [xviii] الذي أدى مقتله إلى نشوب حرب البسوس بين قبيلتي تغلب وبكر،

واستمرت حوالي (٤٠) سنة[xix] ، مثلت ملحمة رائعة لخصال العرب وسجاياهم، فمنها نستشف متانة العلاقات الأسرية، وقوة صلة القرابة، وحب القبيلة.

وقد تنبه النقاد القدماء إلى قوة العلاقة بين الشعر والحرب، وهذا ما أشار إليه (ابن سلام الجمحي)، بقوله: "فلما راجعت العرب رواية الشعر، وذكر أيامها ومآثرها، استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار" [xx].

ومثل تلك الملاحظة تدل على الربط بين الشعر والحرب، الأمر الذي دفع بعض القبائل – تحت تأثير العصبية القبلية – إلى تكثير مذخورها من الشعر بأن تنسب – فيما عرف بقضية الانتحال – إلى شعرائها ما لم يقولوه، إذ كان في الشعر رد للمآثر وتذكير بالأيام والوقائع، والتغني بما فيها من بطولات، حتى إن (ابن رشيق ت: ٤٥٦هـ)، أرجع نشأة الشعر العربي بالحاجة إلى ذكر الوقائع بقوله : "وكان الكلام كله منثوراً، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأمجاد، وشوامخها الأجواد؛ لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم"[xxi] .

ومعنى هذا أن الشعر والوقائع مثلا وجهاً جلياً من أوجه الشعر العربي التي أجمل التعبير عنها، فكان الشعر النتاج الثقافي الوحيد الذي حفظ هذه الأيام والوقائع، وتوصيفاً دقيقاً بنمط الحياة عند العرب، دفع إلى الاقتتال الذي أوجدته المنافسات القبلية التي أورثها السعي وراء مواطن الرعي، مما أدى إلى إثارة الحرب المستمرة بين القبائل[xxii] ، إدراكاً منها بضرورة هذه الحروب في رفعة شأنها، وهذا ما جعل الشعر المصور الدقيق لهذه الحروب التي تجري في دمائهم، إذ لا يستطيعون التنصل منها إلا في الأشهر الحرم[xxiii].

وكما ربط النقاد بين لفظتي الشعر والحرب، ربطوا – أيضاً – بين الحرب وكثير من العادات منها: إشعال النار التي تعد إنذاراً بالحرب التي ستجر الويلات كما تجر النار الخراب[xxiv]. ومن هذه العادات – أيضاً– اصطحاب الأصنام أو ما هو بمثابة الآلهة في الحروب؛ تيمناً بها، كالبعيرين اللذين اصطحبهما بنو تميم في حروبهم[xxv].

ثانياً : أثر الكلمة

شكلت الكلمة باعثاً للحرب وداعياً إليها وسبباً في إشعالها، ودافعاً من دوافعها والتحريض عليها، فيروى أن (المهلهل بن ربيعة) لما قُتل أخوه (كليب) حضّ قبيلته على الأخذ بالثأر، وعهد على نفسه بما عهد على قبيلته من هجر الملذات والنساء حتى يأخذ بثأره، إذ قال:

خُذْ العهَد الأكيَد على عمري ... بِتركي كُلَّ ما حوتْ الدِيار
وهَجْري الغانياتِ وشَرب كأسٍ ... ولِبس جُبة لا تُستَعَارَ
ولستُ بخالعٍ دِرْعي وسَيف ... إلى أنْ يِخْلَع اللَّيلُ النّهارَ[xxvi]

وكان للمرأة أثر كبير في إثارة الحرب بين القبائل بالكلمة، ويظهر هذا جلياً واضحاً في عادة الأخذ بالثأر، فقد وقفت الشموس (عفيرة بنت عباد)، تنعى على قومها (جديس)، استسلامهم للظلم وتحرضهم للأخذ بثأرها عندما حُملت إلى (عمليق)،

لينالها قبل زوجها، فدخلت عليه ثمَّ أخلى سبيلها، "فخرجت إلى قومها في دمائها وقد شقت درعها من قبل ودبر والدم يبين في أقبح منظر ... وقالت لتحرض قومها:

أَيُجمل ما يُؤتى إلى فتياتِكم ... وأنتم رِجالٌ فيكم عددُ النملِ
وتصبحُ تَمشي في الدماءِ عقيرةٌ ... جِهَاراً وزُفتْ في النساءِ إلى بَعْلِ
ولو أنّنا كُنَّا رِجالاً وكُنتم ... نساءً لكنَّا لا نُقرَّ بِذا الفعلِ
فَمُوتوا كِرَاماً أَوْ أمِيتوا عدوَكُم ... وُدبوا لنارِ الحربِ بالحطبِ الجزلِ
وإلاَّ فَخلوا بطنَها وتحمَّلوا ... إلى بلدٍ قفرٍ وموتوا من الهزلِ
فللبينِ خيرٌ من مقامٍ على الأذَى ... وللموتِ خيرٌ من مقامٍ على الذلِ
وإنْ أَنْتمَ لَمْ تَغْضَبوا بَعْد هَذَه ... فكونوا نساءً لا تُعاب من الكُحُلِ

فلما سمع أخوها الأسود قولها، وكان سيداً مطاعاً قال لقومه: يا معشر جديس: " إن هؤلاء القوم ليسوا بأعز منكم في داركم إلا بملك صاحبهم علينا وعليهم، ولو عجزنا لما كان له فضل علينا، ولو امتنعنا لانتصفنا منه، فأطيعوني فيما آمركم فإنه عزُّ الدهر"[xxvii].

ومثلها (خويلة)، التي كان يدخل عليها أربعون رجلاً من محارمها، فأقبل عليهم الصباح وهم صرعى، فأنشدت طلباً للثأر لهم:

فلا يدعني قومي ليوم كريهة ... لئن لم أعجل ضرباً أو أعجل
أنختم علينا كلكل الحرب مرة ... فنحن منيخوها عليكم بكلكل
يقول رجال ما أصيب لهم أب ... ولا من أخ على المال تعقل
ذكرت أبا أروى فأسبلت عبرة ... من الدمع ما كادت من العين تنجلي[xxviii]

كما أدت الكلمة اثراً في تأجيج الصدور، وتذكير الرجال بواجب الحفاظ على شرف القبيلة وعرضها المتمثل في النساء؛ لأنهن عنوان القبيلة وعنوان شرفها، بل إن كثيرات منهن كُنّ يدلين برأيهن في المسائل العامة ولا سيما الأخذ بثأر القتلى، تقول (أم عمرو بنت وفدان)، في أخ لها قُتل وفكرت عشيرتها في قبول ديته:

إنْ أنتمُ لم تطلبوُا بأخِيكمُ ... قَذَروا السِّلاحَ ووحِّشُوا بالأَبْرقِ
وَخُذوا المكاحِلَ والمجاسدَ والبُسوا ... ثُقَبَ النساءِ فبئسَ رَهْطُ المُرهَقِ
أَلهاكُم أَنْ تَطلبُوا بأخِيكمُ ... أَكل الخنزيرِ ولعْق أجردِ أَمْحقِ[xxix]

وكما كان للكلمة أثر في التحريض على الحرب، كان لها – أيضاً– أثر في الدعوة إلى السلام، فمن بين الأخبار التي ترويها المصادر قصة (بهية بنت أوس بن حارثة)، فبعد زواجها من (الحارث بن عوف)، وحملها إليه، كانت حرب (داحس والغبراء)، قد اشتدت بين عبس وذبيان، فلما جاء إليها ليلة عرسه قالت: "والله لقد ذكرت من الشرف ما لا أراه فيك، قال: وكيف؟ قالت: أتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضهم بعضاً؟ قال: فيكون ماذا؟ قالت: أخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم، فخرج لساعته إلى صاحبه خارجة بن سنان، وقصّ عليه حديث امرأته، فقال: والله إنيّ لأرى همة وعقلاً، ولقد قالت قولاًن فخرج الرجلان، ومشيا بين القوم بالصلح، وحمل حمائل القوم وديات قتلاهم"[xxx] .

ثالثاً : اثر البيئة

تؤثر البيئة – بوجه عام – في الأدب إذ إنها تصبغه بصبغة خاصة، وتجعله في إطار مميز عن غيره.

وقد كان القدماء على وعي بأثر البيئة – المكان– في الشعر والشعراء، ويبدو ذلك واضحاً عند (ابن سلام الجمحي)، الذي جعل (البيئة)، أحد المقاييس التي بنى عليها كتابه (طبقات فحول الشعراء)، إذ رأى أن للظروف البيئية الاجتماعية والسياسية أثرا بارزاً في انتاج الشعر وتدفقه، ولا سيما الحروب التي تؤثر في الشعر كثرة وقلة، ولذلك يعلل قلة الشعر بالطائف ومكة بقلة الحروب التي وقعت بين أحيائهما، فهو يقول: "وبالطائف شعر وليس بالكثير، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا"[xxxi].

ولكن هذا الرأي يمكن الرد عليه بأن الحروب ليس وحدها التي تكون سبباً في تدفق الشعر؛ لسبب بسيط هو أن الشعر لا يقال في الحروب فقط، فهناك شعر الغزل، والوصف، والمدح والهجاء، وهذه الأغراض لا علاقة لها بالحروب.[xxxii] كما أن الشاعر العربي لم يواكب الفتوحات الإسلامية، والمثال على ذلك ازدهار الشعر في مكة، ويكفي أنه نشأ فيها (عمر بن أبي ربيعة)، الذي ملأ الجزيرة شعراً غزلياً، حتى إن بعض شعراء الإسلام رفضوا الحرب، على نحو قول جميل بثينة:

يَقولونَ جَاهِدْ يا جميلُ بغزوةٍ ... وأيُّ جهادٍ غيرهُنَّ أُرِيدُ
لكُلَّ حديثٍ بينهُنَّ بَشَاشةٌ ... وكلُّ قتيلٍ عِندهُنَّ شَهيدُ[xxxiii]

وإن كنت أرى ضرورة ربط نضوج الشعر من عدمه بالعرب الجاهليين؛ فالحرب عندهم كانت شبه مستمرة، وفيها يظهر لون الشعر الحماسي، لدفع المحاربين إلى القتال، كما يظهر فيه قصائد المفاخرة التي ترتبط بالنصر والهجاء للأعداء، والرثاء للمقتولين.

فضلا عن ذلك أن (ابن سلام الجمحي)، قد أرجع الشعر إلى الظروف السياسية التي أدت إلى نشوب الحرب والمعارك، وفيها تهيج كوامن النفس، فتجيش بالشاعرية، مندفعة بحب الشاعر لقومه وبتقديره لدوره في نصرته.

رابعاً : الموقف التصويري

عمد النقاد القدماء إلى تصوير الحرب ومنحها أوصافاً متعددة على ألسنة الشعراء أنفسهم، أو عن طريق المقولات النقدية التي بثّوها في ثنايا كتبهم.

وقد قدم هؤلاء النقاد – في الحالتين – صورة دقيقة للحرب في كل أحوالها، وليس أدل على ذلك ما أورده (ابن قتيبة ت: ٢٧٦هـ)، من وصف عمرو بن معدي كرب لها بقوله: " مُرّة المذاق إذا قلصت عن ساق، مَنْ صبر فيها عرف، ومَنْ ضعف عنها تلف، وهي كما قال الشاعر:

الحربُ أوّل ما تكونُ فَتيَّة ... تَسْعَى بِزينتِها لكلَّ جَهولِ
حتَّى إذاَ استعرتْ وشبَّ ضرامُها ... عادتْ عَجوزاً غَيْرَ ذات خلَيل
شَمْطاء جزت رأسَهَا وتنكّرتْ ... مكروهةً للشَّمِ والتَّقبيلِ.[xxxiv]

لقد جاء الموقف التصويري السابق للحرب تصويراً فنياً محملاً بالدلالات والإيماءات التي حولت الحرب إلى موضوع فني تتجلى فيه القدرات الفنية الشعرية والنقدية في رسم صور ذات بُعد متكرر، يرجع في المقام الأول إلى الشعور الجمعي، الذي شكل هاجساً عند كثير من الشعراء والنقاد على حد سواء.

وقد تنبه النقاد القدماء إلى أن ما يحكم الحرب هو قانون البقاء للأقوى، إدراكاً منهم بأن نظام الحياة لا يؤمن بالضعيف، ولذا يظل العربي دوماً متأهباً لها، وهذا ما حدا بابن قتيبة إلى الاستشهاد بقول (دريد بن الصمة):

أَبَى القَتلُ إلاَّ آلَ صمَّةَ إنهَّم ... أَبوا غَيْرهُ والقدرُ يَجْري إلى القدّرِ
فإمَّا تريناَ لا تزالُ دماؤُنا ... لدى واتر يسعَى بِها آخرُ الدَّهر
فإناَّ للحم السَّيفِ غير تكيرةٍ ... ونُلحِمُهُ حيناً وليسَ بِذي نُكرِ[xxxv]

ولقد كان حبُّ القتال صفة مغروسة ومتأصلة في النفس العربية، ثمَّ تحوّل هذا الاستعداد إلى شغف بالسيطرة والغلبة، الذي يحاول العربي عن طريقها أن يستمد ذاته القلقة والمضطربة، وهذا الاضطراب يجعله كالمحارب الجريح، فيوغل في مطاردة أحلامه في تحقيق النصر والغلبة، مما يدفع الى حب التوسع، فكانت الحروب طمعاً في الإكثار من الخيول الأصيلة التي تمكنه من مقاومة خصومه وملاحقتهم[xxxvi] . ولم يكن العرب يخرجون إلى الحرب أو الغزو إلاَّ في وقت الجدب حين ينقطع المطر ويحُبس، فلا يكن أمامهم سوى الطمع في الغنائم[xxxvii].

ولأن من أهداف الحرب هو النهب والسلب والمزاحمة على الماء ومواطن الكلأ، فإن النقاد القدماء قدموا لها وصفاً دقيقاً، فهي تبدأ صغيرة ضعيفة ثمَّ تقوى وتستحكم وتعظم بمرور الزمن، فتصبح لها عدوى كعدوى الجرب، لا يفلت منها راغب ولا كاره[xxxviii].

ويستدل من بعض الأشعار المبثوثة في كتب التراث أن الموقف التصويري للحرب لم يكن مقتصراً على الذات، وإنما قد يمتد ليشمل الموقف الجمعي، على نحو ما نجده عند (أبي دؤاد الإيادي)، من رثاء حار على قبيلته (إياد)، التي أجبرت على ترك موطنها الأصلي إلى موطن آخر، دفعها إلى قتال القبائل الموجودة فيه، مما أدى إلى فناء كثير من أفرادها، مما أحدث أعظم الأثر في نفس الشاعر، عبر عنه في موقف تصويري دقيق للحرب وويلاتها، ومن هذا القبيل له قصيدة يرثي فيها من أودى من شباب قبيلته وكهولهم ، إذ يقول:

لا أعدُ الإقتارَ عدماً ولكن ... فقدُ من قد رُزئتهُ الإعدامُ

ويستمر يبكي فيهم الرؤوس العظام وخلالهم من التأني والرفق والكرم وطيب الأرومة وشجاعة الأسد وما يخلط فرط حدتهم من أحلام وعقول راجحة، إذ يقول :

وكهولٌ بنى لهم اولُوهُم ... مَأثُراتٍ يهابُها الأقوامُ

سُلطَ الدهرُ والمنونُ عليهم ... فلهم في صدى المقابرِ هامُ

فعلى إثرهم تساقطُ نفسي ... حسراتٍ وذكرهم لي سقامُ

أي على حد قوله إنهم اصبحوا هاما وردى، إذ كانوا يعتقدون أن عظام الميت تتحول هامة تطير وصدى[xxxix] .

وقد تنبه النقاد – أيضاً– في دراستهم للموقف التصويري للحرب إلى علاقة هذا الموقف بالإنسان والطبيعة، بوصفه الصورة المرتبطة بهما "ابنة العقلية الجاهلية ذات الاستراتيجية الروحية في تعاملها مع الأشياء، لذلك كانت منابعها هي المنابع الجاهلية"[xl].

وقد ارتبطت الحرب بمشهد النساء النائحات المحرضات للحرب من ناحية والمطفآت لها من ناحية أخرى – كما أشرنا– أو عن طريق المعنى العام وهو الأنثى (الحرب)، وربطها بالنار، عن طريق الإشارة بألفاظ موحية إلى دلالات مختزنة في اللاشعور؛ تظهر علاقة جلية واضحة بين المرأة والحرب[xli]. اقتداءً بالأم الكبرى (عشتار)، و(إنانا)[xlii] .

وتعد البطولة من مظاهر التصوير للحرب، عن طريق الشخصية الإنسانية المتمثلة في صورة الرجل الفارس البطل الذي تظهر عليه علامات الاستعداد للقتال والتضحية، التي تتجلى في شخصية الشعراء الفرسان كالمهلهل بن أبي ربيعة، وعنترة بن شداد، وعامر بن الطفيل وغيرهم الذين أفاضت كتب التراث في تصوير شجاعتهم، تاركة لكل قارئ أن يتخيل ما يريده.

وقد احتلت الطبيعة جزءاً من الموقف التصويري للحرب وربطها بالحياة اليومية، تجلى ذلك في صورة الغول، وما يثيره من دلالات القتل والفتك والخوف إلى أبعد حدود، فالحرب كالغول يغتال الناس جميعاً[xliii].

الخاتمة

أخذ هذا البحث التمظهرات التي اعتمد عليها النقاد القدماء في الكشف عن أدبيات الحرب عند العرب، وانتهى الباحث بعد دراستها وتحليلها إلى النتائج الآتية:

١) مواكبة الشعر العربي لأيام العرب ومعاركهم، حتى يمكن القول بأن هذا الشعر – في معظمه – شعر معارك.

٢) الموقف التصويري استمد مادته من البيئة الاجتماعية، مما ترك للقارئ مساحة تأملية لهذه البيئة النابضة الحية.

٣) كان الشعر هو السفر الذي عن طريقه كشف النقاد عن موقفهم من حروب العرب وأيامهم، مما يكشف عن أن هذه المقولات النقدية وثيقة الصلة بالحياة العربية.

٤) جاءت المقولات النقدية عرضاً من دون المباشرة في السرد والوصف للحرب.

فهرس الهوامش

(١) ينظر : تاريخ الادب العربي ، العصر الجاهلي ،٣٢/١ .

(٢) ينظر: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص ٢٥٣-٢٧٨.

(٣) ينظر في هذه الأيام كتابي: أيام العرب في الجاهلية، وأيام العرب في الإسلام.

(٤) الشعر والتاريخ، ص٣٨.

(٥) طبقات فحول الشعراء، ص٢٤/١.

(٦) ديوان عمرو بن كلثوم، ص٩٠.

(٧) ديوان دريد بن الصمّة، ص٩٧.

(٨)ينظر: الأسطورة والمعنى، ص٤٤، وديوان الأساطير، ٥٥/٣.

(٩) ينظر: مغامرة العقل الأولى، ص١٢١-١٢٢.

(١٠) ينظر: الكامل في التاريخ، ٢٨٥/١٢ – ٢٩١.

(١١) تكون النقائض بين طرفين، ينظم الأول شعراً أم نثراً يفتخر فيه بمآثره وحسبه ونسبه ويهجو الطرف الآخر، فيرد عليه الآخر مهاجياً ومفتخراً، فالأصل فيها المقابلة والاختلاف؛ لأن الطرف الثاني هدفه هو إفساد معاني الطرف الأول.

ينظر: تاريخ النقائض في الشعر العربي، ص١-٧٠، وتاريخ الأدب العربي، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، ٣٦١/١.

(١٢) ينظر: لسان العرب، مادة [يوم]، والشعر الجاهلي.

(١٣) ينظر: الكامل في التاريخ، ٢٩٨/١-٤٢٢.

(١٤) تاريخ آداب اللغة العربية، ٦٥/١.

(١٥) ينظر: طبقات فحول الشعراء، سابق، ٢٠٩/١.

(١٦) ينظر: مقالات في الشعر الجاهلي، ص٣٣٦.

(١٧) نقد الشعر، ص ١٠٠، والبيت الشعري في ديوان الخنساء ص١٤١.

(١٨) طبقات فحول الشعراء، ٣٩/١، والشعر والشعراء ٢٩٧/١.

(١٩) ينظر، الكامل في التاريخ، ٣١٢/١، وما بعدها.

(٢٠) طبقات فحول الشعراء، ٤٦/١.

(٢١) العمدة، ٢٠/١.

(٢٢) ينظر: الأصمعيات، ص٦٠.

(٢٣) ينظر: العقد الفريد، ١٠٢/٦.

(٢٤) ينظر: خزانة الأدب، ١٥٢/٧٢.

(٢٥) ينظر: العقد الفريد، ٢٠٥/٥.

(٢٦) الأغاني، ٩/ ١٧٤ والابيات الشعرية في ديوان المهلهل بن ربيعة ، ص ٣٤ .

(٢٧) الكامل في التاريخ، ١١٩/١.

(٢٨) شرح ديوان الحماسة، للتبريزي، ص٣٠.

(٢٩) شرح ديوان الحماسة، لأبي تمام، ٤٧٣/١.

(٣٠) الأغاني، سابق، ١٤٢/٩، والكامل، ٣٤٣/١-٣٥٥.

(٣١) طبقات فحول الشعراء، ٢٥٩/١.

(٣٢) ينظر: النقد المنهجي عند العرب، ص١٩.

(٣٣) ديوان جميل بن معمر، ص٤٠.

(٣٤) الشعر والشعراء، ٣٧٢/١٢ والابيات الشعرية في ديوان امرئ القيس، ص٥٣.

(٣٥) م. ن ، ٧٥١/٢ والابيات الشعرية في ديوان دريد بن الصمة ، ص٣١ .

(٣٦) ينظر: الحيوان، ٣١٦/٢.

(٣٧) ينظر: م . ن ، ٣٣٣/٢.

(٣٨) ينظر: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ٤٠٧/١.

(٣٩) ينظر: الأصمعيات ، ص٢١٥، والأغاني، ٣٧٩/١٦، وتاريخ الادب العربي العصر الجاهلي، ص٢١٠، والابيات الشعرية في ديوان ابي داؤد الأيادي، ص١٦٢-١٦٥.

(٤٠).الصورة الفنية النقد الشعري، ص١٥٨.

(٤١) ينظر : البيان والتبين، ٥/٢

(٤٢) ينظر: ديوان الأساطير، ص٢٤٥.

(٤٣) ينظر: الحيوان، ١٩٥/٦.

المصادر والمراجع

- أبو الفرج الأصفهاني (ت:٣٥٦هـ)، الأغاني، شرحه وكتب حواشيه: سمير جابر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- أبو علي الحسين بن رشيق القيرواني (ت:٤٧٦هـ)، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٠.
- أبي داؤد الأيادي، ديوانه، تحقيق: أنوار محمود الصالحي وأحمد هاشم السامرائي، دار العصماء، دمشق، ٢٠١٠م.
- إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣م.
- أحمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م.
- أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت:٤٢١هـ)، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.
- أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت:٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق: مفيد قمحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
- امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم ،المعارف، مصر ،١٩٦٤.
- جمال الدين بن منظور (ت:٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق: عبدالله الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- جميل بن معمر، ديوانه، تحقيق: حسين نصار، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٥٦م.
- جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨م.
- دريد بن الصمة، ديوانه، تحقيق: عمرو عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.
- الخنساء، ديوانها ، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت ، ١٩٦٣م.
- ريجيس بلاشير، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ترجمة : إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.
- سعيد بن عبد المالك الأصمعي (ت:٢١٦هـ)، الأصمعيات، تحقيق: أحمد شاكر، وعبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م.
- شوقي ضيف (ت: ١٤٢٦هـ) ، تاريخ الادب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٦٠م.
- عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في النقد الشعري، مكتبة الكتاني، الأردن، ١٩٩٥م.
- عبد القادر بن عمر البغدادي (ت:١٠٩٣هـ)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبدالسلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م.
- عز الدين ابي الحسن علي بن محمد ابن الاثير (ت:٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبو الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
- يحيى بن علي بن محمد الشيباني التبريزي (ت:٥٠٢هـ)، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، دار العلم، بيروت.
- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١.
- عمرو بن بحر الجاحظ (ت:٢٥٥هـ)، البيان والتبين، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥.
- عمرو بن بحر الجاحظ (ت:٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥.
- عمرو بن كلثوم، ديوانه، تحقيق: إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١.

- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٧.
- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة – سوريا وبلاد الرافدين، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٦.
- قاسم الشواف، ديوان الأساطير، قدم له: أدونيس، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٩.
- قدامة بن جعفر(ت:٣٣٧هـ)، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.
- محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، أيام العرب في الإسلام، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨.
- محمد أحمد جاد المولى وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨.
- محمد بن سلام الجمحى (ت:٢٣١هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ت.
- محمد بن عبدالله بن قتيبة الدينوري (ت:٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.
- محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨م .
- المهلهل بن ربيعة ، ديوانه ، شرح وتحقيق : أنطوان محسن القوال ،دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٥م.
- نوري حمودي القيسي، الشعر والتاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠.
- يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦.
- يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، ١٩٧١.